وصف الطاعون في "زراعيات" فرجيليوس: دراسة في التناص

نجوى أحمد مصطفى (باحثة دكتوراه)
تحت إشراف أ.د. علي عبد التواب علي
كلية الآداب- جامعة القاهرة

تتناول الدراسة بالمقارنة طاعون أثينا في قصيدة "في طبيعة الأشياء" للشاعر لوكريتيوس وطاعون مدينة نوريكوم في ديوان "الزراعيات" للشاعر فرجيليوس في ضوء منهج التناص. ويعرف منهج التناص (Intertextuality) كمصطلح أدبي على أنه صدى لنص سابق يتردد بدرجات متفاوتة في نص لاحق. مما يوضح العلاقة بين النصين بشكل يؤثر في طريقة قراءة النص المتناص، أي النص الذي توجد فيه آثار لنص سابق. ويطلق نقاد الأدب على النص السابق المؤثر مصطلح "النص الأصلي" (hypotext)، أما النص اللاحق المتأثر به فيطلقون عليه "النص المستقبل" (hypertext). إن مدلول التناص هو تحديد أثر النص الأصلي وكيفية ظهوره في النص المستقبل وتوضيح براعة الشاعر وحرفيته في تعامله مع النص الأصلي بالشكل الذي يكسر الإيهام لدى القارئ فيذكره بنص آخر(١). وهنا يساعدنا منهج التناص في البحث في علاقة نص الزراعيات بنص لوكريتيوس، للتعرف على أوجه التقارب بين العبارات وبناء النص والأفكار التي تناولها. وعلى الرغم من أن جميع النصوص تتبادل فيما بينها التشابهات النصية، فإن ملامح معينة تبرز كالنوع الأدبي والموضوعات والأفكار(٢). وإذا كان التناص يتألف من نص أصلي يعتمد عليه نص مستقبل فإن هذا لا يعني بالضرورة أن يكون النص الأصلي

أفضل من النص المستقبل، وهذا ما يمكن أن نراه في نقد فرجيليوس لنص لوكريتيوس[٣].

هناك تشابهات لفظية واضحة بين موضوعات لوكريتيوس ومجازاته وبناءه لقصيدته وبين "الزراعيات" مما يشكل أساسًا لقراءة قصيدة فرجيليوس. والحق أن عبارات فرجيليوس لا تعود إلى أسلوب لوكريتيوس فحسب، بل تعود أيضًا إلى المغزى من هذه الأبيات، وهو ما يتطلب تأويلًا للنصين؛ فعلى سبيل المثال تأتي إشارات فرجيليوس لأساطير المسوخ والوحوش الخرافية في مفردات تعيد إلى الأذهان رفض لوكريتيوس لوجود مثل هذا النوع من الأساطير. وفي موضع آخر يستدعي التأويل التناص منحًى آخر يختلف قليلًا : ففي فقرة تطبيق نظرية الأسباب على الغرض من من الكد والعمل[٤] ينبع إعمال الفكر هنا من تأمل كيف عولجت أسطورة العصر الذهبي، ونص لوكريتيوس الذي رفض العصر الذهبي[٥].

هذا وقد عاد فرجيليوس إلى موروث طويل وبالغ التعقيد من التراث الشعري التعليمي السابق عليه في الأدبين الإغريقي والروماني؛ فاعتمد على قصيدة "الظواهر" (Phaenomena) للشاعر أراتوس الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، وأطلق على كتابه الثاني "أنشودة أسكرا" (Ascraeum carmen, 2.176) إيماءً إلى أعمال الشاعر هيسيودوس الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، أما الكتاب الثالث من "الزراعيات" فقد تأثر بشكل ملحوظ بقصيدة "في طبيعة الأشياء" للشاعر الروماني لوكريتيوس، واستعار فرجيليوس في كتابه الرابع والأخير الكثير من الأساطير التي وردت عند هوميروس[٦].

لكن التأثير الأكبر عليه كان للوكريتيوس، فالتأثير الذي مارسه على فكر فرجيليوس وموضوعاته ولغته ربما يفوق تأثير أي شاعر آخر. وقد أبدى فرجيليوس إعجابه بالطابع العلمي الذي صاغ به لوكريتيوس ديوانه :

felix qui potuit rerum cognoscere causas
atque metus omnis et inexorabile fatum
subiecit pedibus (Verg. Georg. 2. 490-2)

" السعيد هو من استطاع معرفة علل الأشياء،
ووضع كل المخاوف والقدر الذي لا يرحم
تحت قدميه،"

مثل تلك الفقرة لا يمكن أن تشير إلى أحد سوى الشاعر لوكريتيوس وقصيدته "في طبيعة الأشياء"، حيث دعا بني جلدته إلى عدم الخوف من الموت ومن تقلبات القدر. ففرجيليوس هنا يريد أن يتبادر إلى ذهن القارئ نص لوكريتيوس من خلال استخدام مفرداته، ولكنه في الوقت نفسه يريد أن ينقض فكر ذلك الشاعر الإبيقوري المذهب. وهكذا يمكن القول إن فرجيليوس كان يقتطف مفردات لوكريتيوس وعباراته، وذلك ليس للتأكيد على سداد أفكاره، بل على العكس من ذلك ليبرهن على أنها كلها خاطئة. ولم يقتصر ذلك التأثير على فكره فحسب، بل إنه اتبع البناء ذاته الذي وضعه لوكريتيوس لقصيدته[٧].

يحتوي منتصف ديوان "الزراعيات"، الذي يضم ختام الكتاب الثاني ومستهل الكتاب الثالث، على تقريرين بهما قدر كبير من التداخل بين النصوص، ويعبران عن الطابع العام للديوان، ويسيران على النهج نفسه لباقي الكتب من حيث التزامهما الدقيق بلوكريتيوس[٨]. في الكتاب الثاني من "الزراعيات" نجد أن معظم الأدوات التي استعارها فرجيليوس من لوكريتيوس قد اقتبسها من الكتاب الخامس من "في طبيعة الأشياء"؛ أما الكتاب الثالث فتتألف محاكاته للوكريتيوس في المقام الأول من تقريره المسهب عن "طاعون نوريكوم" الذي يعول كثيرًا على الكتاب السادس من قصيدة لوكريتيوس. ويبدو أن القاعدة العامة الأساسية التي سار عليها فرجيليوس في ترتيب الإشارات الضمنية إلى لوكريتيوس على مدار الكتابين كانت التناقض التام بين النشأة الأولى وبين الممات. ثم إنه من الأهمية بمكان الأخذ بعين الاعتبار الشكل البنائي لموضوعات الكتابين الثاني والثالث من "الزراعيات" وتأثير ذلك على

القصيدة بوجه عام، وفي ضوء المقارنة بين الكتابين الخامس والسادس من قصيدة لوكريتيوس، تبدو مدينة أثينا التي تطرق إليها لوكريتيوس في حديثه بختام الكتاب الخامس (بيت ١٤٥٧) تمثل ذروة الارتقاء الحضاري (cacumen) ؛ وقد استهل كتابه هذا بتحذيرنا من أن الوجود – لكونه مؤلف من ذرات يحمل صفة الفناء[٩] – مثلما نشأ سيزول. إن عنصر الاستمرارية يزداد بفضل توزيع الموضوعات بالتوازي على الكتابين؛ فمن ناحية أخرى يعالج الكتاب السادس الظواهر التي تخل بتوازن الطبيعة وكذا الظواهر ذات الطابع التدميري بوجه عام كالعواصف الرعدية (٩٦-٤٢٢) والزلازل (٥٣٥-٦٠٧) والبراكين (٦٣٩-٧٠٢) والأوبئة والأسقام (١٠٩٠-١٢٨٦). تزداد الرابطة بين الكتابين قوة من خلال تعيين المكان المناسب لكلمة (cacumen) وجعلها ختامًا للكتاب الخامس؛ لأن – على ما أوضح لوكريتيوس من قبل – جميع الأشياء تواصل النمو حتى تصل إلى الحد المألوف لقوة البناء :

donec alescendi summum tetigere cacumen. (Lucr. DRN 2.1130)

" لكن لا زال هناك الأكثر الذي يؤول إليها حتى تبلغ ذروة النمو "

ومن بعد ذلك تأخذ على نحو محتوم سبيلها إلى الزوال[١٠]. ثمة صدى واضح تمامًا للبيت (١١٣٠) من الكتاب الثاني يتردد في البيت الختامي للكتاب الخامس :

artibus ad summum donec venere cacumen. (Lucr. 5. 1457)

" كل فن من الفنون يخرج من رحم فن آخر إلى أن بلغوا أقصى ذروة."

تشير هذه العبارة إلى تحول اهتمام لوكريتيوس عند انتقاله من الكتاب الخامس إلى السادس من البناء إلى الهدم في كل من عالم الطبيعة والحضارة الإنسانية. إن حركة قصيدة "في طبيعة الأشياء" المطردة من الحيوية والحركة الدائبة إلى مناخ قاتم حزين إنما تعكس نظرة الشاعر إلى النظام الذي يعمل بمقتضاه كل شيء في عالم الطبيعة. وقد وازن بين قوتي النشأة والبناء بقوتين أخرتين هما الشيخوخة التي تزحف شيئًا فشيئًا والموت في نهاية المطاف[١١].

لقد أعجب فرجيليوس بهذا الشكل البنائي أيما إعجاب، فجاءت محاكاته لهذا التناقض واضحة في بناء موضوعات كتابيه الثاني والثالث من "الزراعيات". والحق أنه كان يميل إلى فصل الجانب المشرق في عمله عن الجانب القاتم على نحو أكثر وضوحًا مما كان عليه لوكريتيوس؛ ونجد هذا في ختامي الثاني والثالث إذ يطرحان صور تمثل فضل الطبيعة السابغ ومظاهر جمالها بهيئة بلغت حد الكمال، ثم ذيله بقائمة المعاناة والهلاك. يبدأ الكتاب الثاني بملاحظة يسيرة تخضع النغمة القاتمة بختام الكتاب الأول لبداية جديدة :

Hactenus aruorum cultus et sidera caeli;

nunc te, Bacche, canam, (Verg. Georg. 2. 1-2)
" من ثم فقد غابت زراعة الحقول وأفلت نجوم السماء؛
إذن فقد حان الوقت لأتبتل إليك يا باكوس."

ابتهل فرجيليوس لباكوس بوصفه إلهًا للخصب والرخاء، ومثل فينوس عند لوكريتيوس التي أعادها فرجيليوس في هذا الاستهلال إلى الأذهان، نجد أن للإله باكوس جانب آخر من طبيعة الشخصية. تمثل فينوس – بوصفها تجسيدًا للطبيعة – قوة هدامة ماحقة على قدرٍ مساوٍ لقوتها الخالقة. وعلى هذا النحو فقد أظهر فرجيليوس باكوس بختام هذا الكتاب يملك وجهًا مدمرًا :

Bacchus et ad culpam causas dedit; ille furentis
Centauros leto domuit, Rhoecumque Pholumque
et magno Hylaeum Lapithis cratere minantem.(Verg. Georg.2. 455-7)
" حتى باكوس تراجع أيضًا إثر اقترافه ما يوجب اللوم: فقد ساق إلى المنون
معشر القناطير المختلطة العقل، حين تهدد رويكوس و فولوس
و هيلايوس قبيلة اللابيث جراء تجرع قدح كبير من خمره."

يطرح بناء الكتاب على شكل هاتين المقطوعتين رؤية لوكريتيوس للطبيعة بوصفها ذات وجهين، فهي خلاقة وفي الوقت نفسه هدامة. ومن ناحية أخرى لا نجد أية إشارة عند فرجيليوس إلى الجانب الهدام لدورة الطبيعة – أو بالأحرى، ادخر الحديث عن الوجه التدميري للطبيعة إلى ختام الكتاب اللاحق (الكتاب الثالث)، حيث سمح للموت والتهدم أن يخيما على هذا الكتاب[١٢].

هذا، وقد صاغ لوكريتيوس تقريره عن ارتقاء المجتمع بكتابه الخامس في تعبيرات عامة لا تشير إلى مجتمع بعينه؛ ثم عدل عن هذا بكتابه السادس الذي يُعنى بمجتمع أثينا أقوى قوة باعتبارها أوج (cacumen) الارتقاء الحضاري. إنها أثينا التي تغنى في مطلع الكتاب وصور نهايتها بختامه. يعكس فرجيليوس ترتيب هذا المخطط؛ فبينما لم يحدد لوكريتيوس مثال الحضارة بالكتاب الخامس، لم يترك فرجيليوس في محاكاته مجالًا للشك :

………..sic fortis Etruria creuit
scilicet et rerum facta est pulcherrima Roma, (Verg. Georg. 2. 533-4)
" ... وعلى هذا النحو أخذت قوة سهل إترووريا
تتعاظم وصارت روما أجمل بقاع الأرض "

ومع ذلك يفترض في موضع آخر من كتابه أن أثينا تعيد إلى الأذهان دورها بالكتاب السادس من "في طبيعة الأشياء". يؤكد فرجيليوس في كتابه الثالث على دور الإغريق في ارتقاء العناية العلمية بالدواجن؛ وفي هذا السياق يعيد على أسماع قراءه شهرة خيول إبيروس (Epirus) التي تقع بجنوب غرب اليونان، وخيول بلدة موكيناي

(Mycenae)[١٣]، أو تفوق خيول إبيداوروس (Epidaurus) التي تقع شرق البليبونيس[١٤]؛ وقد ركز فرجيليوس على مقدرة أثينا الإبداعية في الأبيات التالية بوجه خاص :

primus Ericthonius currus et quattuor ausus
iungere equos rapidusque rotis insistere uictor.
frena Pelethronii Lapithae gyrosque dedere
impositi dorso, atque equitem docuere sub armis
insultare solo et gressus glomerare superbos. (Verg. Georg. 3.113-7)

" في البداية حاول إريختونيوس ببسالة أن يشد زوجين من الخيول
إلى العربة فاحتل مقام الظافر وهو يستقر فوق العجلات المنطلقة بسرعة.
أما قبائل اللابيث قاطنو سهول تساليا ممتطو صهوات الخيل
فقد ابتكروا الشكيمة والمضمار الدائري الذي تجري فيه الخيل، ودربوا الفارس
على العدْو السريع بينما يحمل درعه وكذلك على خطوة الجواد المتغطرسة."

تعيد فكرة " المبدعين الأوائل" **(πρῶτοι εὑρεταί)** إلى الأذهان تغني لوكريتيوس بأمجاد أثينا وذلك بمطلع الكتاب السادس[١٥]. ويعد إريختونيوس – أحد ملوك أثينا الممعنين في القدم – مبتكر العربة الحربية رمزًا للحضارة التي قدمتها أثينا للعالم. فمن خلال محاكاة فرجيليوس يستعيد القارئ نص لوكريتيوس الأصلي، كما يستعيد أبطال الحضارة الإغريق مَنْ بفضلهم أصبحت الحضارة مؤهلة لأن تقوم[١٦].

في الكتابين الثاني والثالث إذن يعيد فرجيليوس من جديد بزوغ قوى الحضارة ثم انهيارها اللاحق، ذلك الموضوع الذي كان بمثابة الموضوع الرئيس للكتاب السادس من "في طبيعة الأشياء". وبفضل خصوصية الشكل البنائي التي تربط بين الكتابين الخامس والسادس من قصيدة لوكريتيوس، يستطيع فرجيليوس البناء – إذا جاز التعبير – على غرار هذين الكتابين من دون إخلال بتوازن ديوان "الزراعيات". تعد هذه المحاكاة – التي تشكل في جوهرها جزءًا من تصميم الشاعر لبناء ديوان "الزراعيات" – إشارات ضمنية يسير فيها فرجيليوس على غرار لوكريتيوس متبعًا منهجًا جدليًا، وباعتماد مسار الكتابين الثاني والثالث من "الزراعيات" على الكتابين الخامس والسادس من "في طبيعة الأشياء"، وبتسليط الضوء على المعارضة الأدبية لموضوع قصيدة وشكلها البنائي، أفاد فرجيليوس من مصدره بنفس الطريقة تقريبًا التي أفاد بها أيضًا من مصدريه هسيودوس وأراتوس بكتابه الأول، وإلى درجة مساوية لما تم من قبل، يعيد فرجيليوس صياغة النص الأصلي ليتناسب مع أغراض جديدة[١٧].

هذا، ويعد الكتاب الثالث أعظم أجزاء "الزراعيات" تعبيرًا عن لوكريتيوس؛ إذ إنه نسخة مطابقة تمامًا للأصل في التزامه الدقيق بلوكريتيوس وقد بنى بوجه عام

كأنموذج مصغر من قصيدة "في طبيعة الأشياء". وتبلغ هذه التوازيات درجتها القصوى بطاعون الماشية الذي أصاب مدينة نوريكوم[١٨]، إذ سرد وقائعه عند منتهى الكتاب، ويعد محاكاة صادقة لكل فقرة توجد عند لوكريتيوس على نحو يمكن التعويل عليه كثيرًا[١٩].

سوف نستهل دراستنا للطاعون بأعراض المرض، يقول فرجيليوس :

nec uia mortis erat simplex; sed ubi ignea uenis
omnibus acta sitis miseros adduxerat artus,
rursus abundabat fluidus liquor omniaque in se
ossa minutatim morbo conlapsa trahebat. (Verg. Georg.3. 482-5)

" ولم يكن العبور (من الحياة) إلى الموت بالأمر اليسير، لأنه عندما يستولي
الظمأ الشديد على جميع الأوردة يعمل على تقليص الجسد الهزيل،
حيث يتحلل قدر كبير من المادة السائلة التي تحتوي عليها
العظام الخائرة القوى فتتفتت بفعل المرض ذرة تلو الأخرى".

فالمرض له مظهران : نقصان الرطوبة متبوعًا بزيادة مفرطة في الرطوبة؛ قد يكون العرض الأول حقيقي، أما فيما يتعلق بالعرض الآخر: لشد ما يدهشنا أن انتهى فرجيليوس بعد دراسة لأعراض المرض الفعلية من واقع المصادر التي اضطلع عليها – إلى نتيجة مؤداها أن نسيج العظام آخذ في الانحلال شيئًا فشيئًا حتى بلغ الأمر حد الذوبان. إن عمل فرجيليوس ينم عن عبقرية مبدعة؛ فقد اهتم بالأسلوب أكثر من اقتفاء أثر لوكريتيوس الذي تناول أعراض المرض الفعلية، وصور التطور التدريجي له بإسهاب بالغ[٢٠]. وكانت أولى هذه الأعراض ارتفاع درجة حرارة المريض والتهاب الجفون، أما العرض الثاني فنزيف دماء فاسدة من الحلق فيختنق مجرى الصوت ويصير اللسان ثقيلًا ويخرج النطق بصعوبة مصحوبة بألم، ثم يسري المرض إلى القلب فتتداعى تخوم الحياة (vitai claustra,1153) . وسواء تحققت مصداقية هذه الأعراض في الطب أم لم تتحقق، فإنها مع ذلك رسمت رسمًا تفصيليًا بأسلوب سلس يسير على الفهم. من بين الأعراض التحول التدريجي للأجسام من الحالة الصلبة إلى حالة السيولة. ورد ذكر المرحلة الأولى من المرض في تقرير فرجيليوس، وهو الظمأ الشديد ignis sitis – في اثنى عشر مسمى في أبيات لوكريتيوس[٢١] بما في ذلك (ignis,1167) و (sitis arida, 1175) . أما العرض الثاني بالنسبة لفرجيليوس فهو داء الاستسقاء كما ورد في تقرير لوكريتيوس :

inde ubi per fauces pectus complerat et ipsum
morbida vis in cor maestum confluxerat aegris, (Lucr. DRN 6.1151-2)

" بعد ذلك عندما يملأ المرض المميت الصدر ذاته
مرورًا بالحلق ، فإنه يغمر الفؤاد الحزين للمرضى،"

ويظهر أحيانًا كأحد أعراض الطور الرابع من أطوار المرض في تقرير لوكريتيوس حيث يصور مصير أولئك من قدر لهم البقاء على قيد الحياة بعد الشفاء[٢٢] فيعانون من قيح أسود يخرج من الأمعاء، مما يكشف عن وجود نزيف داخلي، ومن دم فاسد ينهمر من الأنف، وتؤدي هذه السيولة إلى تداعي كل قوى المرء وسائر أعضاء الجسد :

aut etiam multus capitis cum saepe dolore
corruptus sanguis expletis naribus ibat.
huc hominis totae vires corpusque fluebat.
profluvium porro qui taetri sanguinis acre
exierat, (Lucr. DRN 6.1204)

أو أن يخرج من ثقبى الأنف المختنق
دم فاسد مصحوباً بألم عنيف بالرأس :
وحينئذ تنحسر كل قوى الجسد . فضلاً عن ذلك
فإن من يبقى على قيد الحياة يصاب بسيولة حادة بالدم،

أما أولئك من لم يعانوا من هذه الدماء الحاملة للمرض وجدوا أن المرض سرى إلى الأعصاب والأوصال حتى أنه بلغ الأعضاء التناسلية، ففقد البعض أقدامهم، والبعض أيديهم وأبصارهم. تلقي هذه التفاصيل مصداقية من منظور الأطباء، غير أن ما عدل فرجيليوس فيه لم يحظ بهذه المصداقية؛ إذ إنه ذكر أن العظام سوف تتحول إلى حالة السيولة. ومع ذلك نجد الآن أن فكرة ذوبان العظام التي قال بها فرجيليوس قد صارت واضحة : إنها صورة شائعة مستوحاة من تقرير لوكريتيوس الذي صور فقدان المريض قدم أو ذراع؛ فكأنما فرجيليوس يقول إن فقدان هذه الأوصال بمثابة ذوبان عظامها في محلول سام[٢٣].

في واقع الحال، لأن لوكريتيوس نفسه ساق طاعونه على غرار تقرير ثوكيديديس التاريخي عن طاعون أثينا، لذلك نكتشف أن الجوانب المتوارثة عن الطاعون والتي جرى العرف عليها بين المؤلفين القدامى في هذه الفقرات، وكذا الجوانب الشائعة في تقارير هؤلاء المؤلفين تبرز على نحو أكثر من تلك الفقرات العادية. فضلًا عن ذلك، فكما أن تقرير ثوكيديديس يشبه إلى حد كبير مؤلفات أبوقراط (Hippocrates) في هذا الصدد، فإن تقرير لوكريتيوس وكذا فرجيليوس يمضيان إلى حد أبعد من مصادرهما المباشرة فيستعينان أيضًا بالمؤلفات الطبية الفعلية في سبيل إضفاء مادة تتمم تقاريرهم؛ فعلى سبيل المثال – لا تتطابق علامات دنو الأجل التي أحصاها لوكريتيوس بالأبيات (١١٨٢- ١١٩٦) مع ما ورد في مؤلفات أبوقراط الطبية. وعلى النحو نفسه : فبينما يجعل لوكريتيوس العرق الذي يغمر المريض عرضًا شائعًا من أعراض المرض، نجد أن فرجيليوس لتحريه الدقة يحدد نوع العرق فيصفه العرق البارد كعلامة على الموت المصلت على رأس من

يغمره مثل ذلك النوع العرق[٢٤]، وقد سار في ذلك على نهج مأثورات الحكيم أبوقراط[٢٥] مراعيًا تطبيقه العلمي لنظرية الأخلاط البدنية – وهي أخلاط أربعة زعم القدماء أنها تقرر صحة المرء ومزاجه[٢٦]. وبوجه عام يتحاشى فرجيليوس الخوض في التفاصيل الطبية التي أفاض لوكريتيوس فيها، ولكنه يؤلف بين مصطلحات ومفاهيم مختارة من تفاصيل بالغة العمق وأعراض مترابطة منطقيًا ليقدم صورة مبسطة عن المرض تتألف من مظهرين فقط – تتسم هذه الصورة بالاعتماد على التأثير على العواطف، كما يهتم بالأسلوب الأخاذ وذلك عن طريق كل من التناقض والعنصر المثير للشفقة، ولا يعير اهتمامًا البتة للأحداث والوقائع التاريخية أو للحقائق العلمية[٢٧]. لاحظ كيف يصرف فرجيليوس انتباه قارئه عن محاولة معرفة مصدر الطاعون وأعراضه، وفي مقابل ذلك يرجح كفة تأثير هذا الوباء؛ فقد أفرد كل من ثوكيديديس ولوكريتيوس مساحة جديرة بالاعتبار لكل جانب من جوانب الموضوع الثلاثة : أسباب المرض (الكتاب الثاني ٤٧- ٧٨ = الكتاب السادس ١٠٩٠- ١١٤٤)؛ و أعراض المرض (الكتاب الثاني ٤٩ ، الكتاب السادس ١١٤٥- ١٢١٤)؛ وعلم الأوبئة (الكتاب الثاني ٥٠- ٥٤ = الكتاب السادس ١٢١٥- ١٢٨٦). ومع ذلك ليحل فرجيليوس نفسه مما يوجب النقد اقتصر على بضعة أبيات تطرق فيها على عجالة إلى الجانبين الأول والثاني من جوانب الموضوع، فخصص لكل جانب منها أربعة أبيات : أسباب المرض (الكتاب الثالث ٤٧٨- ٤٨١)، وأعرض المرض (٤٨٢- ٤٨٥) في مقابل اثنين وستين بيتًا كاملًا تتحدث عن مدى تأثير المرض على ضحاياه (٤٨٦- ٥٤٧). لا شك أن ذلك يرجع إلى أن هذين الجانبين يتيحان الفرصة بدرجة أقل بكثير لإبراز العنصر المثير للشفقة الذي يهدف فرجيليوس إلى التأكيد عليه[٢٨].

إذن الفارق الأكثر استرعاء للانتباه بين الطاعونين : أن لوكريتيوس قد أوضح أعراض المرض وتأثيره بشيء من التفسير العلمي، أما فرجيليوس فقد عرض علينا تقريرًا يتسم بخصوصية أكبر يدعونا بوضوح تام إلى التعاطف مع ضحايا الطاعون، لاحظ على سبيل المثال التعبيرات : "حزين مغموم" (miseranda) ، "بائسون" (miseros) . هذا وقد صور الحيوانات النافقة في تعبيرات إنسانية بحتة[٢٩]. ويعد الثور آخر الحيوانات التي تطرق فرجيليوس إلى مسألة موتها، فتوصل إلى حقائق تختلف تمام الاختلاف عن تقرير لوكريتيوس[٣٠]:

ecce autem duro fumans sub uomere taurus
concidit et mixtum spumis uomit ore cruorem
extremosque ciet gemitus. it tristis arator
maerentem abiungens fraterna morte iuuencum,
atque opere in medio defixa reliquit aratra.

non umbrae altorum nemorum, non mollia possunt
prata mouere animum, non qui per saxa uolutus
purior electro campum petit amnis; at ima
soluuntur latera, atque oculos stupor urget inertis
ad terramque fluit deuexo pondere ceruix.
quid labor aut benefacta iuuant? quid uomere terras
inuertisse grauis? (Verg. Georg. 3. 515-526)

" انظر أيضًا، هناك ثور يتهاوى صريعًا حيث تفيض روحه أمام
المحراث الثقيل، يلفظ دماء مصحوبة برغوة تنبعث مع
آخر أناته. وأقدم الفلاح على حل الثور الآخر من النير،
فقد ذهبت نفسه حسرات على رفيقه الفقيد،
فسار بحزن في خطى وئيدة مبتعدًا عن المحراث المنغرز في الأرض
معطلًا عن العمل. ولم تعد ظلال الغابات الوارفة تثير اهتمامه الآن،
أو الرياض الوثيرة أو النهر الذي ينساب عبر السهل
فوق حصا أشد بريقًا من الذهب والفضة؛ يتهاوى جسده الثقيل فجأة
حيث تشق غيمة طريقها إلى عينيه، واضعة حدًا لحياته
فيتدلى عنقه تحت وطأة وزنه نحو الأرض.
فهل جنى ثمار عمله الشاق وحرصه على أداء الواجب وتفانيه فيه؟
وهل عاد عليه تقليبه للأرض شديدة الانحدار باستخدام المحراث؟ "

لا يدين هذا بشيء للوكريتيوس في تقريره عن طاعون أثينا. إن هذا الانتقال المفاجئ أو التحول الكبير المتسم ببراعة التصوير البلاغي يقتضي على فرجيليوس استيعاب أبيات لوكريتيوس الآتية وفهمها فهمًا جيدًا(٣١):

nam saepe ante deum vitulus delubra decora
turicremas propter mactatus concidit aras
sanguinis expirans calidum de pectore flumen;
at mater viridis saltus orbata peragrans
novit humi pedibus vestigia pressa bisulcis,
omnia convisens oculis loca, si queat usquam
conspicere amissum fetum, completque querellis
frondiferum nemus adsistens et crebra revisit
ad stabulum desiderio perfixa iuvenci,
nec tenerae salices atque herbae rore vigentes
fluminaque ulla queunt summis labentia ripis
oblectare animum subitamque avertere curam, (Lucr. 2.352-363)

" أسوق إليك مثالاً شائعاً ، أمام أضرحة الآلهة المقدسة

نجد عجلاً يسقط على الأرض مذبوحاً بجانب المذابح
المحملة بالبخور المحترق ، ومن صدره ينفجر سيل من الدماء ،
بينما أمه التى حُرمت منه ، تهيم عبر الممرات الخضراء
فى الغابات ، تفحص الأرض وتتعرف على آثار أقدامه
التى طبعها على الأرض بحوافره المشقوقة ، عيناها تطوفان
هذا الطريق وذاك فى بحث عن صغيرها المفقود . تتوقف وتتفحص
بعينيها الأشجار العتيقة المورقة وهى تتفجع . وغالباً ما
تعود إلى الحظيرة بجرح لا يندمل وبحنين إلى صغيرها .
إن أشجار الصفصاف والأعشاب الريانة الطازجة
المبللة بالندى والمجارى التى تفيض بالمياه على
ضفافها ، كل ذلك لا يكفى لمواساتها ولإزاحة حزنها
الذى تنوء به ."

إن الموت الذي باغت الثور بمطلع البيت ٥١٦ بينما كان يتصبب عرقًا خلال عمله على المحراث يعد طباقًا بلاغيًا شائع يستدر قدرًا كبيرًا من التعاطف، كما يدعو الأنين (gemitus) الصادر عنه إلى الشفقة. غير أن أكثر أوجه الاختلاف عند فرجيليوس كانت إظهار حزن الفلاح وكذلك حزن الثور الآخر الذي ذهبت نفسه حسرات على فقده رفيقه في العمل على جر المحراث. ونجد انعكاسًا للقيم الأخلاقية في الأبيات اللاحقة تتمثل في عدم جدوى العمل الشاق وكذلك الجد وضبط النفس[٣٢]، حيث وردت هذه القيم في تعبيرات تثير مشاعر طيبة حري أن يتسم بها الإنسان قبل أن تُنسب إلى الحيوان. تعد أوجه الاختلاف هذه إضافة من لدن فرجيليوس ذي الفكر العميق المرهف تجاه حياة الحيوانات؛ فلا يجري دراسة دقيقة تدور حول عالم الحيوان، أو يطلق المفاهيم والمصطلحات العلمية أو الطبية، بل يتناول ما تتعرض له الحيوانات من أمراض أو شدائد من منظور يضفي عليها صفات البشر في تعبيرات تناظر تلك التعبيرات التي تصور الآلام التي يقاسيها البشر. في تقرير لوكريتيوس جاءت الفقرات التي تدور حول حياة الحيوان موجزة وتتوافق إلى حد كبير مع انفعالات البشر وعواطفهم؛ فصور كيف أن الطيور الجارحة والوحوش البرية تعف عن أكل جثث البشر الملقاة في العراء، وإن فعلت ماتت. بل إنها حتى لم تخرج من الغابات. ومن ناحية أخرى، فتصوير فرجيليوس لمعاناة الوحوش البرية[٣٣] يمدنا تدريجيًا بدافع قوي لأنها لا تتصل بموضوع الطاعون الذي أصاب ماشية مدينة نوريكوم. تطرق فرجيليوس أيضًا للأحياء المائية، رغم أن نوريكوم ليست مدينة ساحلية. وهناك سمة أخرى تتسم بها الفقرة التالية وهي ترتيب الأمثلة. إن ما فعله فرجيليوس ببساطة هو أن ألقى نظرة خاطفة وتصفح في سرعة أنماط قياسية تعد

معيارًا للحكم على الأشياء، كحيوانات المزرعة والأحياء المائية والوحوش التي تقطن باطن الأرض والطيور:

non lupus insidias explorat ouilia circum
nec gregibus nocturnus obambulat: acrior illum
cura domat; timidi dammae ceruique fugaces
nunc interque canes et circum tecta uagantur.
iam maris immensi prolem et genus omne natantum
litore in extremo ceu naufraga corpora fluctus
proluit; insolitae fugiunt in flumina phocae.
interit et curuis frustra defensa latebris
uipera et attoniti squamis astantibus hydri.
ipsis est aër auibus non aequus, et illae
praecipites alta uitam sub nube relinquunt. (Verg. Georg. 3. 537-547)

" فلم يعد الذئب يطوف خلسة ويجوس خلال حظيرة الأغنام بحثًا عن فريسة،
ولم يعد يشن الغارات أثناء الليل على القطعان : فقد استبد به
هم شديد، فصار هيابًا وباتت الأيائل ذات الخطى الرشيقة
تجول هنا وهناك وسط معشر الكلاب وتطوف بالمنازل.
وانجرفت طائفة الأحياء المائية التي تفوق الحصر وكل ضرب من المخلوقات
السابحة إلى الشاطئ فبدت وكأنها جثث غرقى من البشر قذف بها الموج إلى
الشاطئ؛ ونزح حيوان الفقمة من موطنه الأصلي ولاذ بالأنهار فرارًا.
وفارقت الأفعى السامة الحياة عبثًا تحتمي بجحرها الملتوي
من ثم اقشعرت حراشف حية الماء العذب ذعرًا.
وبات الهواء مهلكًا حتى للطيور، إذ تتردى بلا هوادة
رأسًا على عقب فتفيض روحها بمكان قصي عن السحب العالية."

فالذئب ذلك الوحش الضاري الأصل لم يعد مفترسًا بعد، إنها ضرورة أشد قسوة من استبداد الجوع به، أما الغزال مضرب المثل في الوجل والهلع والقلق الدائم، صار الآن لا يعرف الخوف إليه طريقًا؛ إذ إن فصيلة الكلاب وكذلك البشر مرضى الآن، لم تعد تسبب له إزعاجًا. لكن سعي فرجيليوس من أجل إيجاد تناقض ظاهري والكشف عن فروق يرصدونها عند مقابلته بتقرير لوكريتيوس قاده إلى نوع من منافاة العقل[٣٤]؛ فقد استعار فرجيليوس من لوكريتيوس عددًا لا بأس به من التفاصيل الدقيقة نوعًا ما، وكانت رؤيته التقليدية للطاعون والتي كان قد اطلع عليها وألمَّ بها بعمق هي بلا ريب صورة حقيقية، لولا أن افترض أن الغزال ذا مناعة من المرض ولم يطرح سببًا وجيهًا لهذا الزعم[٣٥]. على أية حال، قد لا يتضمن اهتمام فرجيليوس بقصيدة لوكريتيوس كل جوانب محتواها العلمي، لذا فإن شهرته في العالم القديم

كمؤلف متعدد جوانب الثقافة لا تحتاج إلى اهتمام أكثر، حتى لو كان معروفًا بدرايته بالطب. هل أساء فرجيليوس حقًا فهم هذه الأبيات من تقرير لوكريتيوس إلى الحد الذي جعله يشير إليها، بمثل هذا الطول المحدد وبمثل ذلك القدر الضئيل من التفاصيل؟

عندما نمعن النظر إلى الموضوع نضع أيدينا على سبب وجيه للاعتقاد في أن فرجيليوس على مدار حياته كان جادًا في اهتمامه بالفلسفة؛ وبالرغم من هذا نجد أن أكثر المقطوعات الفلسفية لديه تمد القارئ بنوع من الإيمان بالآخرة والبعث والحساب، لكن على نحو غامض غير مفهوم، كما يفتقر إلى ترتيب الأفكار. قبل تلك الفقرات التي تبدي ظاهريًا اهتمامًا كبيرًا بفروع المعرفة الخاصة بالعلوم التطبيقية، غير أنها في الوقت نفسه تقدم تقريرًا مشوش على نحو خطير أو حافل بالأخطاء، وهذا ما حدث في واقع الحال بالنسبة لفرجيليوس؛ لأنه كثيرًا ما كان يغض الطرف عن محتوى مصادره أو كان يحرف فيها، من ثم يكتشف المرء نهاية المطاف أنه كان إما قارئًا غافلًا أو أن فرجيليوس كان يفرغ عن عمد مصادره من محتواها الأصلي ويرجع ذلك إلى ألفته بها، ويركز فقط على الاعتبارات الشكلية. إن هذا بالضبط ما فعله فرجيليوس حيال "طاعون" لوكريتيوس. فتجرد لوكريتيوس والتزامه الحياد الذي يتسم به الأطباء وكذا الوضوح وتحريه الدقة العلمية ورغبته في التصوير الدقيق لهذا الحدث التاريخي أي الطاعون الذي هاجم مدينة أثينا قبل أربعة قرون من تأليف لوكريتيوس لقصيدته، إن كل هذا لا يهم فرجيليوس في شيء؛ فقد صرف تقريره إلى وجهة مختلفة تمامًا فحوله إلى لغة منمقة تحتفي بالأسلوب، ويوازي هذا ولكن على الصعيد الظاهري الدقة التي تميز العلوم التطبيقية. رغم أن لغة المحاكاة مازالت تبقي على نحو كبير على النص الأصلي(٣٦).

فقد تخلى فرجيليوس بنهاية هذه الفقرة عن تناقضه الظاهري وكذا عن مقابلة الشيء بنقيضه عندما تطرق إلى موت الطيور بسبب تلوث الهواء بفيروس الطاعون؛ نعلم من خلال تعاليم المدرسة الفيثاغورية أنه عند الممات تعود أجسادنا إلى الأرض وتصعد الروح في نهاية المطاف إلى جوار روح الإله، من ثم تقع الطيور بأجسادها فقط عند مماتها إلى الأرض، ولكنها تغادر روحها طليقة في الهواء إلى أن تتحد بروح الإله. يعد هذا الإيمان بالغيب رؤية فرجيلية بحتة، ومع ذلك تنطوي أيضًا على عناصر لوكريتية، حيث تدين العبارة :

ipsis est *aer* auibus *non aequus*, et illae
praecipites alta uitam sub nube relinquunt. (Verg. Georg.3. 546 - 7)

"وبات الهواء مهلكًا حتى للطيور، إذ تتردى بلا هوادة
رأسًا على عقب وتفيض روحها بمكان قصي عن السحب العالية"

تدين بشيء ما إلى تعبير لوكريتيوس :

proinde ubi se caelum, quod nobis forte alienum,
commovet atque aër inimicus serpere coepit, (Lucr. DRN 6. 1120-21)

" لذا عندما يدور الغلاف الجوى الغريب علينا
فإن الهواء غير الصحى يزحف ،"

كما تدين إلى تصوير مناخ إقليم أفيرنوس (Avernus) المعادي للطيور :

principio, quod Averna vocantur nomine, id ab re
inpositumst, quia sunt avibus contraria cunctis, (Lucr. DRN 6.740-1)

"وقد أطلق عليها اسم أفيرنا فى المقام الأول بسبب
كونها مهلكة لجميع فصائل الطيور ،"

هذا الإقليم الذي يردي الطيور مهاوي الهلاك ما إن اقتحمت مجاله الجوي :

e regione ea quod loca cum venere volantes,
remigii oblitae pennarum vela remittunt
praecipitesque cadunt molli cervice profusae (Lucr. DRN 6. 742-4)

"لأنه عندما تحوم أية فصيلة ذات رياش فوق تلك الأماكن ،
غافلة عن سربها فتطوى أشرعة أجنحتها ، فإنها تنقلب رأساً
على عقب وهى تمد أعناقها الخائرة وسرعان ما تسقط على الأرض"

والحق إننا نضع أيدينا على رؤية مهمة بتفسير مثل ذلك التردي وفقًا لنواميس علوم الطبيعة؛ ففوق إقليم أفيرنوس يزداد الضغط الجوي فيؤثر على الأجسام التي تتحرك عبره، حيث يزداد الضغط الجوي على أعناق الطيور فتختنق، وتتردى أجسادها صرعى على نحو ما ينهمر سائل منسكب. يعد هذا أنموذج لظاهرة طبيعية بالغة الأهمية(٣٧). يقوي التناص من التأثير إذا ما وضعنا نصب أعيننا حقيقة أن أعراض المرض الذي برح بالحيوانات عند فرجيليوس بدت كأعراض مرض يصيب البشر؛ إن الأضحية القربانية المسجاة بلا حراك عند المذبح تعيد إلى الأذهان إفيجينيا لوكريتيوس(٣٨). يصور فرجيليوس جهود الكهنة الضائعة من أجل التكفير عن الذنب الذي جلب عليهم الطاعون وذلك عن طريق التضحية بعجل صغير. تعيد مفردات فرجيليوس لوحة لوكريتيوس؛ يضع فرجيليوس أضحيته فوق المذبح :

saepe in honore deum medio *stans hostia ad aram*,(Verg. Georg.3. 486)

ويحيط جبهتها بشريط :

circumdatur infula,(Verg. Georg.3. 487)

ثم يصل إلى مشهد سقوطها صريعة على مرأى من الحضور :

inter cunctantis cecidit moribunda ministros; (Verg. Georg.3. 488)

ويزيد على ذلك أنه عقب الضربة القاضية :

ferro mactauerat(Verg. Georg.3. 489)

نكتشف أن قدرًا ضئيلًا من الدماء قد سالت من الأضحية لحد جعلها بالكاد تخضب السكين :

ac uix suppositi tinguntur sanguine cultri(Verg. Georg.3. 492)

لجميع هذه التفاصيل ما يوازيها عند لوكريتيوس؛ فإفيجينيا أيضًا ضحية :

hostia concideret mactatu maesta parentis,(Lucr. DRN 1.99)

" سقطت على نحو آثم كقربان حزين كى تُذبح بيد أبيها،"

وتقف أمام المذابح :

et maestum simul ante aras adstare parentem
sensit,(Lucr. DRN 1.99)

"وبمجرد أن رأت أباها المكلوم وهو واقف أمام
المذبح ،"

ويزين خصلات شعرها شريط :

cui simul infula virgineos circum data comptus
ex utraque pari malarum parte profusast, ,(Lucr. DRN 1.87-88)

" وبمجرد أن ربط الشريط ضفيرتيها العذريتين
المتدليتين بالتساوى من كل جانب على وجنتيها،"

وقد هوت صريعة :(concideret,1.99) أمام الحضور : (ministros, 1.90) حيث ذُبحت (mactatu,1.99) غير أن دماءها غمرت المحراب المقدس :

Aulide quo pacto Triviai virginis aram
Iphianassai turparunt sanguine foede
ductores Danaum delecti, prima virorum. (Lucr. DRN 1.84-86)

"فبأى حق لطخ صفوة القادة الدانائيين (الإغريق) ،
قادة الحملة العسكرية ، مذبح الربة تريفيا العذراء فى أوليس
على نحو آثمٍ بدماء إفيجيني"

إن غزارة التفاصيل وتطابق مفرداتها وتناغم المجازات تذكر بالأحداث الماضية وتزيد من قوة الترابط بين موضوع كل من الفقرتين : في أبيات لوكريتيوس التي تعالج موضوع تقديم القرابين جاءت المقارنة بين عالمي البشر والحيوان على شكل محاكاة ساخرة؛ حيث ينظر إلى التضحية بالبشر في سبيل تقديمها قربانًا للآلهة باعتبار ذلك أمرًا بغيضًا بكل معنى الكلمة لأن ثمة دوافع تؤمن بالخرافات تقف وراء هذا وهي دوافع تنافي العقل والتفكير السديد. يزداد هذا التحامل على المعتقدات الدينية من خلال الأبيات التي تصور التضحية بعجل صغير وذلك في الكتاب الثاني من "في طبيعة الأشياء". وتتكرر الفكرة في سياقات أخرى في كل جنبات القصيدة إلى أن تصل إلى مظهرها الأخير في تقرير "طاعون أثينا" :

omnia denique sancta deum delubra replerat
corporibus mors exanimis onerataque passim
cuncta cadaveribus caelestum templa manebant,
hospitibus loca quae complerant aedituentes.
nec iam religio divom nec numina magni
pendebantur enim: praesens dolor exsuperabat. (Lucr. DRN 6.1272-7)

" هذا بالإضافة إلى أن الموت قد ملأ سائر
مقدسات الآلهة بالأجساد الموات
واكتظت معابد الآلهة بالجثث،
من كل من كهنتها وزوارها.
لا تُراعى عبادة الآلهة الآن أو قدسيتهم،
أكثر من هذا: فشدة الحزن تغلبت على الاعتبارات
الدينية."

تقف المعتقدات الدينية عاجزة عن التخفيف من حدة الوباء. تعد هذه الفكرة النقطة الأساسية في موضوع التضحية عند فرجيليوس. والحق أن فرجيليوس سار بكل معنى الكلمة على غرار تطور هذه الفكرة عند لوكريتيوس حتى بلغ تصوير الجثث التي تناثرت في كل طرقات المدينة التي حاق بها الطاعون(٣٩):

iamque cateruatim dat stragem atque aggerat ipsis
in stabulis turpi dilapsa cadauera tabo,(Verg. Georg. 3.556-7)

" أما الآن فقد تفشى الوباء بين الجموع
وتكدثت جثث الحيوانات الرميمة في مرابضها،"

يعد طاعون نوريكوم أثرًا أدبيًا مؤلفًا من مختارات من فكر لوكريتيوس ومن صوره البلاغية وأسلوبه في التعبير. ويتحقق هذا بوجه خاص في تلك المقطوعات الشعرية التي تتخذ فيها المحاكاة شكل انعكاس حاد، أو ما يطلق عليه "المحاكاة عن طريق المعارضة الأدبية" (oppositio in imitando)(٤٠). ولنستشهد بأكثر النماذج وضوحًا في ذلك الصدد؛ يشير لوكريتيوس في فقرة شهيرة إلى أن العلاج لم يعد يجدي نفعًا حيال طاعون أثينا :

nec requies erat ulla mali: defessa iacebant

corpora. mussabat tacito medicina timore, (Lucr. DRN 6. 1178-9)

" لم يكن هناك راحة من الألم : فكانوا يسقطون على الأرض
من الإنهاك ، ويتحدث المعالجون المحيطون بفراش المريض
بصوت منخفض فى ذعر لا يوصف،"

أما عند فرجيليوس فقد تحولت مهنة الطب، تلك القيمة المجردة، إلى مجاز أسطوري:

quaesitaeque nocent artes; cessere magistri,
Phillyrides Chiron Amythaoniusque Melampus.
saeuit et in lucem Stygiis emissa tenebris
pallida Tisiphone Morbos agit ante Metumque,
inque dies auidum surgens caput altius effert. (Verg. Georg. 3. 549-553)

" ورغم كل محاولات الأطباء إلا أن الأحوال تدهورت من سيء إلى أسوأ، إذ أعلن
أمهر الأطباء خيرون بن فليرا وميلامبوس بن أميتاؤون أن المرض غير قابل للشفاء.
وقد بدأت روح تيسيفوني الناقمة تظهر للعيان تطل بوجهها الشاحب من ستيكس
تعصف بنا في وضح النهار فتدفع بالوباء أمامها وتغادر هلعًا من ورائها.
ومع حلول كل يوم جديد ترفع إلى السماء هامة جشعة شديدة التوق إلى الأذى."

قبل صعود تيسيفوني يعرض فرجيليوس الجهود التي بذلت في سبيل التخفيف من زحف الوباء[٤١]؛ بدأت هذه المساعي بتغيير نوع العلف الذي يقدم للماشية، ولكن منيت هذه المحاولة بالإخفاق. ثم تطرق إلى جهود الطب البيطري (artes,549) فاختار أساطينه (magistri,549)، أي خيرون وميلامبوس[٤٢].

يقف مثل هذا الموروث الطويل من الإشارات الأسطورية في الخلفية وراء توظيف فرجيليوس للمجازين الأسطوريين، خيرون وميلامبوس في طاعون نوريكوم : فلكل منهما صلة بعالم الحيوان، ولكل منهما مهارة علاجية، وكل منهما أيضًا يملك القدرة على التنبؤ، كما أن كل منهما نقل علمه إلى ذريته وتلاميذه[٤٣]. وفي موضع سابق بالكتاب الثالث[٤٤] أشار فرجيليوس إلى خيرون؛ حيث صور ساتورنوس يمسخ نفسه إلى جواد ليتسنى له الإفلات من زوجه عند مباغتتها له يطارح الحورية فيليرا

الغرام. وعندما يظهر خيرون في تقرير الطاعون الاستطرادي، فإن فرجيليوس يريد منا تذكر والد هذا القنطور، وذلك من خلال ذكر اسم والدة خيرون بدلًا من أبيه الذي ذكره من قبل في الأبيات (٩٢ – ٩٤). وهذا يطرح تفسيرًا آخر للبيتين ٥٤٩ – ٥٥٠ حيث صور فيهما الشاعر كلًا من عصر ساتورنوس (Saturnia regna) ، أي العصر الذهبي (من خلال القنطور سليل ساتورنوس)، وعصر جوبيتر (في صورة ازدهار الحرف والفنون). ويدحر الطاعون كل مظاهر الحضارة والتمدن؛ وقد صوره فرجيليوس في صورة مجاز تيسيفوني التي توازي الصراع بين حكم ساتورنوس وعصر جوبيتر[٤٥]. فلم يكتف فرجيليوس بأن يعبر عن مهنة الطب بالمجازين الأسطويين الطبيب خيرون والعراف ميلامبوس فحسب، بل صور أيضًا خصوم هذين الطبيبين ليس كوباء تقليدي يمكن التوصل إلى أسباب حدوثه وفقًا لمبادئ النظرية الذرية كما فعل لوكريتيوس، بل كمخلوق خرافي تنشق عنه بوابة العالم السفلي، فيندفع منها ومعه الأسقام والمخاوف. لا ريب أن بلوغ تيسيفوني عنان السماء يعيد إلى الأذهان المعتقدات الدينية كما صورها لوكريتيوس، حيث تبدو للعيان في شكل مضخم يلوح في الأفق وكأنه يهدد بوشك الوقوع على البشر الخائفين وذلك قبل النصر الذي حققه أبيقور على طريق الهدى[٤٦]. من ثم يظهر فرجيليوس استقلالية موقفه من المعتقدات الدينية وذلك من خلال العديد من الإشارات غير المباشرة إلى لوكريتيوس[٤٧].

مازال أمامنا الكثير لنستخلصه من دراستنا لنص الطاعون بالكتاب الثالث من "الزراعيات" في ضوء نص طاعون أثينا بالكتاب السادس من قصيدة لوكريتيوس؛ وقد أفردنا بالفعل الكثير من التفاصيل الخاصة بفرجيليوس تحتفي أكثر بالأسلوب (معارضات، تناقض ظاهري، منافاة العقل والمنطق)، هذا فضلًا عن اهتمامه بالجانب العاطفي، أي تعاطفه مع الحيوانات وإضفاءه صفات البشر عليها، وسيطرة الوازع الديني عليه، واتجاهه للكتابة بغرض التأثير في المتلقي، على حساب بلوغ الحقيقة. أما فيما يتعلق بلوكريتيوس فنجد اهتمامًا بتصوير الظواهر الطبيعية تصويرًا دقيقًا.

يجب في هذا الصدد أن نضع في الأذهان أنه مثلما سار لوكريتيوس في تقريره على غرار ثوكيديديس، فالشيء نفسه فعله فرجيليوس بالنسبة للوكريتيوس، وأن الدارسين عندما قارنوا بين الشاعرين وجدوا أن لوكريتيوس أيضًا قد أجهد نفسه من أجل التأثير في المتلقي، وكذا في التفاصيل البلاغية وفي التأكيد على الشق العاطفي، وفي الاهتمام بالقيم الخلقية. قد يشي هذا الاستنتاج الغريب بأن هذا التحليل المبني على أساس المقارنة بلغ أقصى حد ممكن من التنوير، وفي الوقت نفسه أقصى درجات الخطورة: فعند مضاهاة فرجيليوس بلوكريتيوس نجد أنه يحتفي بالأسلوب على حساب الفكر في كثير من الأحيان، بيد أن ذلك لا يعني أن نجزم بأن فرجيليوس كان بلاغيًا يهتم بالأسلوب المنمق المتكلف وأن لوكريتيوس فلا. ويهتم لوكريتيوس بالناحية العاطفية بالمقارنة بثوكيديديس؛ لكن قد يجافينا الصواب إذا قطعنا بأن لوكريتيوس كان ذا نظرة عاطفية للأشياء وأن ثوكيديديس كان رصينًا، لأنه عند مضاهاة ثوكيديديس بمؤلفات الإغريق في الطب نكتشف أن تقريره عن الطاعون ينطوي على عناصر درامية وأنه يتضمن مشاعر إنسانية ويتمتع بشاعرية كبيرة، هذا فضلًا عن كونه أنموذجًا بارعًا يظهر بوضوح رؤية ثوكيديديس للأحداث التاريخية. فالخصائص التي تميز شاعرًا عن آخر أو مؤلفًا عن آخر والتي نستنبطها بالدراسة المقارنة يظهر تأثيرها فقط في حال مقارنتها بخصائص أخرى، لكن لا تعد كذلك إذا نظرنا إليها قائمة بذاتها(٤٨).

انتهت هذه القصة الاستطرادية الواردة بديوان "الزراعيات" بانتقال عدوى الطاعون من الماشية إلى البشر:

nam neque erat coriis usus, nec uiscera quisquam
aut undis abolere potest aut uincere flamma;
ne tondere quidem morbo inluuieque peresa
uellera nec telas possunt attingere putris;
uerum etiam inuisos si quis temptarat amictus,

ardentes papulae atque immundus olentia sudor
membra sequebatur, nec longo deinde moranti
tempore contactos artus sacer ignis edebat. (Verg. Georg. 3. 559-566)

" ولم تعد جلود الحيوانات صالحة للاستعمال، لأنها غير قابلة للتطهير
عن طريق نقعها في الماء أو للتعقيم بواسطة معالجتها بالنار؛
ولم يتسن حتى جز صوفها فقد التهمه الوباء وأتى عليه
وغطته الأدران والعطن الذي يجعل المرء يحجم عن نسج رداءكريه الرائحة
يتدلى من نوله؛ وأي امرؤ ارتدى هذه الثياب الكريهة
فسوف تفوح من بدنه هذه الرائحة البشعة وسيبتلى ببثور ملتهبة
ويتصبب عرقًا ملوثًا، وفي أقل من لمح البصر
ستلتهم النيران المقدسة بدنه المصاب بالعدوى."

ومن ثم فكل كلمة وردت في تقرير فرجيليوس تنسب إلى حد ما إلى لوكريتيوس: فالصفة "ملتهبة" (ardentes, 564) نجدها في طاعون لوكريتيوس :

in fluvios partim gelidos *ardentia* morbo
membra dabant nudum iacientes corpus in undas.(Lucr. DRN 6. 1172-3)

"يغوص بعض المرضى ، بأجسادهم الملتهبة بفعل الطاعون ،
فى جداول المياه الباردة حيث يقذفون بأجسادهم عارية فى الماء."

ونجدها أيضًا في :

quippe patentia cum totiens *ardentia* morbis
lumina versarent oculorum expertia somno. (Lucr. DRN 6. 1180-1)

" وبلا انقطاع يدير المرضى
بسرعة أعينهم الشاخصة والملتهبة من جراء الطاعون ولا يعودها الكرى."

وكلمة "بثور" (papulae,564) نجد ما يقابلها عند لوكريتيوس "قرح" (ulcera) :

et simul ulceribus quasi inustis omne rubere
corpus, (Lucr. DRN 6. 1166-7)

"وفى ذات الوقت يتحول الجسد كله إلى اللون الأحمر بفعل القروح
الملتهبة ،"

وفيما يتصل بالعرق الذي يتفصد من المريض (sudor,564) نجده أيضًا عند لوكريتيوس:

sudorisque madens per collum splendidus umor, (Lucr. DRN 6. 1187)

"ويتصبب فيض من العرق المتلألىء الذى يقطر على العنق،"

أما فيما يخص "الرائحة الكريهة" (olentia, 564) فنجد ما يقابلها عند لوكريتيوس :

spiritus ore foras taetrum volvebat odorem,
rancida quo perolent proiecta cadavera ritu. (Lucr. DRN 6. 1154-5)

"وتنبعث عند التنفس رائحة كريهة خلال الفم ،
كالرائحة المنبعثة من جثث نُبذت لتتعفن."

وكذا فإن كلمة "المصاب بالعدوى" (contractos,566) نجدها عند لوكريتيوس :

ex aliis alios avidi contagia morbi, (Lucr. DRN 6. 1236)

"لأن عدوى المرض الذى لا يشبع
لا تكف عن الانتقال من ضحية لأخرى،"

وفيما يتصل بعبارة فرجيليوس :

artus sacer ignis edebat. (Verg. Georg. 3.566)

قارن عند لوكريتيوس :

ut est per membra sacer dum diditur ignis. (Lucr. DRN 6. 1167)

" بيد أن أجساد المرضى تستعر بنار مقدسة،"

يكمن الاختلاف الأساسي بين طاعون فرجيليوس وطاعون لوكريتيوس في إطلاق أسماء شخصيات أسطورية لترمز إلى فرع من فروع العلم من ناحية وفي معالجة فكرة الموت من ناحية أخرى[٤٩]. وقد سبق الإشارة إلى هذه الأبيات باعتبارها نموذج للمعارضة الأدبية في فن المحاكاة. في الوقت الذي يعكف فيه لوكريتيوس على إطلاق أسماء الشخصيات الأسطورية المعدة للاستخدام عند اللزوم، وبوجه عام يتناول لوكريتيوس الواقع في عبارات عادية هي للنثر أقرب منها للشعر، فلا يلجأ إلى البراعة الفنية كما فعل فرجيليوس، ليزيد من حدة جانب الموت المروع، ذلك الجانب الذي نظم لوكريتيوس قصيدته من أجل التخفيف منه. من ثم جاء منهج فرجيليوس في معالجة التفاصيل الفنية مفاجئًا غير متوقع في هذا الشكل البنائي المحكم للقصيدة، الذي سار على غرار قصيدة لوكريتيوس. ومن خلال هذه الصورة المروعة لقوى العذاب التي تعمل على قطع الأواصر بين المرء والطبيعة قبل أن تسلمه إلى قوى الموت التي تفتقر إلى التعقل فتقضي على حياته. نظرًا إلى تشخيص

المجردات هذا والقدرة على إضفاء الصفات البشرية على المفاهيم المجردة، وهو الأمر الغريب على رسالة لوكريتيوس والمخالف لمبادئها، فقد فهم معظم الدارسين الفقرة بوصفها تمثل أحد أركان هذه العبارة النقدية الشهيرة :

Anti Lucrece chez Virgile

لكن من المستحسن أن يتجنب المرء القفز إلى هذه النتيجة إلا بعد أن يمعن جيدًا الفكر في إفادة فرجيليوس من قصيدة لوكريتيوس ككل. فضلًا عن أن دارسي "الزراعيات" قد أعجبوا بهذه القصيدة بوصفها أحد صور المحاورات الفلسفية. وعلى ذلك ننطلع إلى اعتبار الإشارات الضمنية الواردة بها التي تشير إلى قصيدة "في طبيعة الأشياء" منهجًا للمناقشات الفلسفية. ولكن شكل المحاورة الذي توطدت عليه الأذهان هو المناقشة بطريقة الحوار الجدلي قبل أن يكون مؤلفات عقائدية تتسم بالهجوم العنيف على مبادئ أو آراء شخص وتفنيدها. كما ينبغي علينا بوجه خاص التخلص من الكتابات عتيقة الطراز التي تدون الخواطر النفسية بشكل مقبول الظاهر، والتي توجد بشكل مبالغ فيه في الشروح التي تناولت ديوان "الزراعيات" – لأن إبيقورية فرجيليوس السابقة تفسح الآن المجال للعصر الأوغسطي، عصر العلم والدراسات الأدبية وعصر نضوج الفكر – لأن "الزراعيات" تلزم شاعرها بالحفاظ على هذه الروح التي أفعمت عمله السابق بالحياة وذلك عن طريق معاودة التأليف على غرار عمل أدبي سابق لمؤلف ممعن في القدم ألا وهو لوكريتيوس. إن مثل هذه الرؤية المبسطة للموضوع هو ما سلكه فرجيليوس بطريقة جديرة بمقدرته الفنية؛ فليست المسألة إذن مجرد فكرة الرفض الذي مرده عقدة نفسية لإبيقورية لوكريتيوس وأن هذا يتفق تمامًا مع الفكر الجديد المتعلق بشاعر العصر الأوغسطي. فقبل كل شيء يتعين علينا أولًا أن نضع في الاعتبار أننا نتعامل في هذا الصدد مع محاورة فلسفية يقلب فيها الشاعران الأمور على مختلف الوجوه وذلك باستخدام الأدوات التي يملكها كل شاعر – كالمجاز والإشارات الضمنية، وليس عن طريق تعبيرات ذات علاقة بالعلوم التطبيقية أو باستخدام القياس المنطقي. عندما نمعن النظر في صورة فرجيليوس الختامية التي تقرر عدم جدوى العلاج في مقابل القوة الصاعدة من العالم السفلي وذلك في ضوء معالجة موضوع "الطاعون" نصل إلى نتيجة واضحة: أن كلًا من الشاعرين يعتبران المعتقدات الدينية غير ذات جدوى وذلك في أحسن الأحوال(٥٠)؛ إذ إنها على الأرجح تجلب علينا كل الشرور. والحق أن فرجيليوس يكشف تدريجيًا عن موقفه من هذه القضية وذلك عن طريق إشارات ضمنية تعود مرة تلو الأخرى على لوكريتيوس؛ وذلك من خلال تبنيه موقفًا عقلانيًا مؤمن بوجود الآلهة، وقد أعلن ذلك صراحة على العكس من سلفه لوكريتيوس؛ إذ يخالف لوكريتيوس في الرأي من ناحية، ومن ناحية أخرى جاءت نظرته إلى المعتقدات

الدينية على مدار "طاعون نوريكوم" متجهمة وغير راضية ومستاءة من كل ما ورد بقصيدة "في طبيعة الأشياء"(٥١).

وهذا ويتعين علينا قبل أن نختتم دراستنا هذه بالتطرق إلى موضوع تأثر بناء ديوان "الزراعيات" ببناء قصيدة "في طبيعة الأشياء"، مع تسليط الضوء على أهمية موضوع "الطاعون" في بناء العملين.

إن محاولة إظهار خصائص أنموذجه المتوارية تتبدى على نحو أوضح عندما ندرك أن المصادر التي اعتمد عليها في المحاكاة تتضمن أيضًا مقطوعات أخرى من قصيدة لوكريتيوس غير طاعون أثينا. بلجوء فرجيليوس إلى الدمج (contamenatio) من أجل محاكاة تختلف عن معالجة لوكريتيوس للطاعون، استعان فرجيليوس بمصطلحات لوكريتيوس لتسهم في خدمة أهدافه؛ فأبيات فرجيليوس التي تصور حزن الثور على رفيقه الراحل :

mox erat hoc ipsum exitio, furiisque refecti
ardebant, ipsique suos iam morte sub aegra
(di meliora piis, erroremque hostibus illum!)
discissos nudis laniabant dentibus artus.
ecce autem duro fumans sub uomere taurus
concidit et mixtum spumis uomit ore cruorem
extremosque ciet gemitus. it tristis arator
maerentem abiungens fraterna morte iuuencum,
atque opere in medio defixa reliquit aratra.(Verg. Georg. 3. 511-19)

" وسرعان ما يفضي هذا إلى الهلاك، فقد أصابهم سعير
قوة أخرى، والآن يرقدون عاجزين أمام الموت
(فالآلهة تمن على الأتقياء بحياة أخروية أفضل، وتبتلي خصومها بمثل ذلك العذاب!)
فيمزقون أوصالهم ويشوهون أبدانهم بأنياب بارزة.
انظر أيضًا، هناك ثور يخر صريعًا حيث تفيض روحه أمام المحراث
الثقيل يلفظ دماءً مصحوبة برغوة تنبعث مع
آخر أناته. وقد أقدم الفلاح الحزين على حل الثور الآخر
من النير، إذ ذهبت نفسه حسرات على رفيقه الراحل،
فسار بحزن في خطى وئيدة مبتعدًا عن المحراث المنغرس في الأرض معطلًا
عن العمل."

تبدو هذه الفقرة وكأنها إشارة إلى فقرة بالكتاب الثالث في قصيدة "في طبيعة الأشياء":

Quin etiam subito vi morbi saepe coactus
ante oculos aliquis nostros, ut fulminis ictu,
concidit et spumas agit, ingemit et tremit artus,
desipit, extentat nervos, torquetur, anhelat
inconstanter, et in iactando membra fatigat,
****
exprimitur porro gemitus, quia membra dolore
adficiuntur et omnino quod semina vocis
eliciuntur et ore foras glomerata feruntur
qua quasi consuerunt et sunt munita viai.(Lucr. DRN 3. 487-498)

هذا بالإضافة إلى أننا كثيراً ما نرى بأعيننا أن شخصاً يُصاب
بنوبة صرع مباغتة ، كما لو أن صاعقة قد أصابته ،
حيث يسقط على الأرض و تخرج رغوة من فمه ويئن وتنتفض
أوصاله ويهذى و تتصلب عضلاته و يتلوى و يتنفس
على نحو لاهث ، وتخور قوة أطرافه نتيجة لتقلبه ؛
****
كما أن الأنين يرتفع لأن أعضاء الجسد يعتصرها
الألم ، وبشكل عام لأن ذرات الصوت
تتجمع ثم تنطلق من الفم وتتجه نحو الخارج ،
من حيث اعتادت الخروج ، إذ إن كل الطرق قد مُهدت لها .

إن طاعون فرجيليوس المبني على طاعون لوكريتيوس يتيح الفرصة لتوظيف فقرة أخرى وردت عند لوكريتيوس تختص بمهنة الطب. ويعد سياق هذا النص الأصلي غير وثيق الصلة بسياق نص فرجيليوس؛ إذ يحاول لوكريتيوس إثبات أن الروح مثل الجسد عرضة أيضًا للإصابة بالأمراض كداء الصرع، ويتبع ذلك بالضرورة أن تكون عرضة للموت أيضًا مثلها في ذلك مثل الجسد. يمد فرجيليوس قارءه بـ "إسناد ترافقي" واضح، ونقصد بالإسناد الترافقي : إحالة جزء من عمل أدبي على آخر. وهناك نقطة أساسية أخرى: من جانب لوكريتيوس نجد أن "الصرع" مرض يصيب الإنسان، أما فرجيليوس فقد حول أعراض الصرع التي صورها لوكريتيوس إلى أعراض الطاعون الذي أصاب الحيوانات. وفي هذا الصدد يثبت فرجيليوس حقيقة أن الطاعون الذي أصاب الماشية كان في الأساس معتمدًا على وصف لوكريتيوس للطاعون الذي أصاب البشر. وعليه فقد انصهرت أعراض الصرع التي صورها لوكريتيوس بسهولة في طاعون ماشية فرجيليوس[٥٢].

هذا، كما جاءت محاكاة فرجيليوس لأبيات لوكريتيوس(٥٣) التي تصور البقرة الثكلى في سياق آخر، وأعني به تقريره عن الطاعون في ختام الكتاب الثالث من "الزراعيات"(٥٤). لكن فقرة لوكريتيوس هذه ليس لها في الأمر شيء يتعلق بالطاعون، أو حتى حيال المرض بوجه عام؛ فقط يمكنها أن تندرج ظاهريًا ضمن محاكاة فرجيليوس لموضوع تأثير موت عزيز على ذويه. ومع ذلك كانت بمثابة النموذج الرئيس لفرجيليوس في صياغة ختام كتابه الثالث من "الزراعيات". إذن ما كان يسهم كمثل موضح بقصيدة "في طبيعة الأشياء" تحول إلى موضوعات رئيسة في ديوان "الزراعيات"؛ من ثم فقد دعم الفكرة الأساسية للطاعون الذي أصاب البشر بقصيدة لوكريتيوس بفقرات أخرى من القصيدة ذاتها، تشير إلى كل من عالم البشر (داء الصرع: الكتاب الثالث، ٤٨٧- ٤٩٨ من "في طبيعة الأشياء = الزراعيات الكتاب الثالث ٥١١ – ٥١٧)، وعالم الحيوان (البقرة الثكلى في "في طبيعة الأشياء" الكتاب الثاني ٣٥٢ – ٣٦٧ = رفيق الثور في جر المحراث "الزراعيات " الكتاب الثالث ٥١٥ – ٥٣٠). عندما نضع في الحسبان أبيات لوكريتيوس في مجملها نجد أن محاكاة فرجيليوس لها لا تتوقف على سياق الطاعون فحسب، بل على القصيدة كلها(٥٥).

هناك إشارة أخرى في طاعون فرجيليوس تدعم هذه النقطة إلى أبعد حد : تختلف أبيات فرجيليوس التي تنعي موت الثور عن الأنموذج الذي صيغت على غراره وذلك على وجهين : أولًا، لا تتناول رد فعل البقرة الثكلى بل رد فعل رفيق الثور في النير؛ أما الوجهة الأخرى، أن مصرع الثور لم يكن ناجمًا عن تقديمه قربانًا بل كان بتأثير المرض. وعندما نضع نصب أعيننا ملابسات النموذج الأصلي (أي لوكريتيوس) نجد أن فرجيليوس يؤلف أيضًا بين مفردات مقتبسة من فقرة أخرى "في طبيعة الأشياء" تصور إهدار حياة فتاة صغيرة (إفيجينيا) في سبيل تقديمها قربانًا للآلهة(٥٦).

في الكتاب الثالث من "الزراعيات" يؤكد فرجيليوس على ضرورة العلاج الجراحي كخطوة تمهيدية لتقريره عن طاعون نوريكوم الذي يشكل ذروة هذا الكتاب:

non tamen ulla magis praesens fortuna laborum est
quam si quis ferro potuit rescindere summum
ulceris os: alitur uitium uiuitque tegendo, (Verg. Georg. 3.452-4)

" ومع ذلك فلا علاج أكثر نفعًا لأسقامهم
من أن يقدم المرء على قطع منبت القرحة
بالمشرط : وإلا سيتفاقم مصدر المرض إذ إنه يتغذى في خفاء."

ورغم ذلك يسري الوباء داخل الجسم ويستفحل. أرجع الدارسون هذين البيتين إلى البيت (١٠٦٨) من الكتاب الرابع للوكريتيوس:

ulcus enim vivescit et inveterascit alendo (Lucr, 4. 1068)

"إن الحياة تدب فى الجرح إن قمت بتغذيته فيصير راسخاً،"

يعد استخدام فرجيليوس لكلمة (ulcus,454) استخدامًا استثنائيًا وغير مألوف مع الصيغة المصدرية (tegendo,454)، وهو ما يمثل ردًا على الاستخدام نفسه عند لوكريتيوس للصيغة المصدرية (alendo) مع كلمة (ulcus) ، وقد أدخل فرجيليوس تعديلًا من خلال إضافته للفعل(alitur) . وجدير بالملاحظة أن إشارة فرجيليوس لم تكن من تقرير لوكريتيوس عن "طاعون أثينا"، بل من الكتاب الرابع، حيث لا يتحدث هنا لوكريتيوس عن الأوبئة، ومع ذلك يلجأ إلى مصطلحات ومفردات مجازية تدل على المرض، وذلك في سياق تحامله على العاطفة الحسية. إذن يبدو مغزى نموذج فرجيليوس غير وثيق الصلة بموضوع الطاعون، غير أن وقوعه في الكتاب الثالث من "الزراعيات" يمهد السبيل للمرحلة التالية، إذ يعد همزة وصل تربط بين صور الدمار الناجمة عن الطاعون والأثار التدميرية الناجمة عن عاطفة الحب، والتي أحصاها لوكريتيوس بالكتاب الرابع. ومن ثم فإن أبيات فرجيليوس تعد إشارة من بين الكثير من الإشارات الأخرى بالشطر الثاني من الكتاب الثالث التي تطرح تطابقًا بين الرغبة الجنسية والأسقام، وتجعل كل منهما بإمكانه أن يحل محل الآخر(٥٧).

إذن فجميع الفقرات التي وردت بديوان "الزراعيات" على سبيل المحاكاة تتضمن نوعًا من إعادة ترتيب عناصر بناء القصيدة والتي استمدت من نماذج بعينها من "في طبيعة الأشياء". وهناك رابطة صريحة بين "طاعون نوريكوم" بديوان "الزراعيات" و "طاعون أثينا" بقصيدة لوكريتيوس. ومع ذلك نصادف هنا شكلًا جديدًا من التنوع الذي يجري فيه – إذا جاز التعبير – تطعيم محاكاة الأنموذج الأصلي عن طريق إضافة مادة من فقرة ثانوية إليها. إن موضوع الطاعون نفسه وكذلك المنهج العلمي الظاهري الذي اتبعه فرجيليوس – قد حدد مقدمًا شكل تقريره عن طاعون نوريكوم(٥٨).

هذا، وقد أثارت نهاية قصيدة لوكريتيوس جدلًا كبيرًا بين الدارسين قديمًا وحديثًا؛ فقد أنهى عمله الوحيد والفريد بوصف طاعون أثينا الذي تناوله ثوكيديديس من قبل. فمن ناحية فإن هذا الوصف ينتهي على نحو مفاجيء، فالقارئ يشعر أن لوكريتيوس لم ينه تقريره عن الطاعون. ومن ناحية أخرى فإن عرضه للطاعون يعد ختامًا مروعًا للعمل، فقد تركنا ونحن نحدق في الانهيار الذي حل بالمجتمع دون أن يقدم أية بارقة أمل، وذلك بعد ستة كتب خصصها لإبراز أن الطبيعة تتسم بالسخاء، وأنها قابلة للتفسير، وأنه من الممكن احتمال ما بها من ظواهر. ولهذا اعتبر البعض أن هذا العمل لم يكتمل. ولعل لوكريتيوس كان يقصد إنهاء قصيدته بمثل هذه النهاية لأسباب وجيهة لديه. فإنهاء قصيدة لوكريتيوس على هذا النحو يجعل الملاذ الوحيد

الذي يمكننا اللجوء إليه بغية السلوان هو العودة إلى مطلع القصيدة، إذ يدعو المتلقي إلى قبول حقيقة أن التدهور والردى ما هما إلا تتمة ضرورية للحياة والنماء المتمثلين في فينوس بمطلع القصيدة(٥٩).

يلعب طاعون فرجيليوس أكثرمن دور في بناء القصيدة : فهو لا يعد نهاية للعمل كله، إذ يتلقى ختام الكتاب الثالث نوعًا من السلوان في الكتاب التالي عليه؛ وذلك من خلال مليحمة أريستايوس، حيث يختتم فرجيليوس عمله بعودة الحياة إلى خلية النحل(٦٠). وبناء عليه فإن كلًا من ختامي الكتابين الثالث والرابع يطابقان ختام الكتاب السادس من قصيدة " في طبيعة الأشياء "؛ فختام الكتاب الثالث من حيث المبالغة في تصوير الأهوال والفظائع والمناخ العام القاتم الذي يخيم على قصيدة لوكريتيوس؛ أما ختام الكتاب الرابع فهو يعبر عن استمرار الحياة ويقدم السلوى عن موت الفرد المحتوم ،الذي لا مفر منه، والذي يعادل استهلال لوكريتيوس للكتاب الأول(٦١).

الهوامش :

١. سيد صادق، "تأصيل التناص في التراجيديا الإغريقية"، مجلة أوراق كلاسيكية، جامعة القاهرة، العدد السابع (٢٠٠٧) صـ ١١٠ ، ١١٢ .
2. Farrell, J. (1991), Vergil's Georgics and the Tradition of Ancient Epic:The Art of Allusion in Literary History. New York, p.61, 63.
٣. سيد صادق، المرجع نفسه، صـ ١٢٩. ..
4. Verg, Georg. 1. 118 -146.
5. Farrell J. op. cit. p.69.
6. Ibid. p. 3.
7. Gale, M. (2000), Virgil on the Nature of Things. Cambridge p.9.
8. Ibid. p.18.
9. Lucr. DRN 5. 235-415.
10. ibid. 2. 1122-1143.
11. Farrell J. op. cit. p.200f. .
12. Gale M. op. cit. p.36f.
13. Verg. Georg. 3.121.
14. 3. 44.
15. Lucr, DRN 6. 1-8.
16. Farrell J. op. cit. p.202f. .

17. Ibid. 204f.

١٨. عرفت البشرية الكثير من الكوارث البيئية والصحية مثل تفشي الطاعون، وقد صورت لنا العديد من الأعمال الأدبية هذا الوباء، فنراه في إلياذة هوميروس، وفي "أوديب ملكًا" لسوفوكليس.بيد أن الطاعون في هذين العملين كان مستمدًا من الأساطير للتعبير عن غضب الآلهة. أما ثوكيديديس فقد تحدث عن طاعون حقيقي وهو الذي أصاب مدينة أثينا، وكان هو نفسه شاهد عيان له (٤٣٠ – ٤٢٩ ق.م.) وجدير بالذكر أن ثوكيديديس قد خلع عن الطاعون ردائه الأسطوري وألبسه رداءً تاريخيًا.

علي عبد التواب، " طاعون أثينا: الحقيقة التاريخية والرؤية الفلسفية"، مجلة كلية الآداب، مجلد ٦٧ (٢٠٠٧) جامعة القاهرة صـ ١٥٦.

انظر أيضًا :

Finnegan, R.(1999), " Plagues in Classical Literature ", CAI pp.28ff.

وفيه تناول Finnegan R. الطاعون أولًا كما قدمه ثوكيديديس، ثم كما صورته التراجيديا الإغريقية. ومن بعد ذلك من وجهة نظر لوكريتيوس وفرجيليوس وأخيرًا أوفيديوس. وكان يُنظر إلى المصاب بهذا الوباء على أنه ملوث حري به أن يخضع لتطهير ديني؛ إما عن طريق نفي مصدر الوباء أو قتله. وفي طاعون طيبة كما صوره سوفوكليس – انتهى الأمر بمصدر هذا الوباء أن يكون الملك أوديب نفسه. وقد عاد سوفوكليس إلى منهج الشعراء كهوميروس وهيسيودوس في تناول مثل تلك الموضوعات؛ وهو اللجوء إلى الآلهة.

19. Gale M. op. cit. p.45.
20. Lucr. DRN 6. 1145-1198.
21. ibid. 6. 1163-1175.
22. ibid. 6. 1199-1214.
23. West, D. (1979) " Two Plagues : Virgil, Georgics 3. 478-566 and Lucretius 6.1090-11286". In Creative Imagination and Latin Literature, ed. D. West and A. Woodman. pp. 77-9.
24. Verg. Georg. 3. 500-501.
25. Hippocr.4.37; apud. Farrell J. op. cit. p.84.
26. Farrell J. op. cit. p.84.
27. West D. op. cit. p. 79.

على حد ما أوضح Farrell J. op. cit. p.85 استنادًا إلى معيار الدقة المتناهية التي تتسم بها التقارير الطبية ومعيار الرخصة الشعرية، كان تأثر طاعون فرجيليوس بأنموذجه أشد من تأثر لوكريتيوس بثوكيديديس، ولكي يبلغ التناظر بين هذه التقارير حد الكمال، نضرب بتقرير ثوكيديديس مثلًا؛ فقد سيق على غرار مؤلفات أخرى في الطب كأطروحة أبوقراط "مبحث الأوبئة". إذ اعتمد جميع هؤلاء المؤلفون على صيغ مستمدة من التقارير الطبية بالغة الدقة، يكفينا أن نرتب هؤلاء فقط ترتيبًا تصاعديًا يبدأ بأبوقراط وينتهي بفرجيليوس فيما يتعلق بالتأثير المتزايد لاستجداء العطف من ناحية وتناقص الدقة التي يتسم بها الطب بشأن مراقبة حالة المريض من ناحية أخرى.

28. Farrell J. op. cit. p.85.
29. Gale M. op. cit. p.46.

30. West D. op. cit. p. 81.
31. Farrell J. op. cit. p.89.
٣٢. تتوازى الحياة الصالحة للثور المعتمد على نفسه مع مثال الكمال التصويري لحياة الفلاح أو مع الحكيم الإبيقوري عند لوكريتيوس، غير أن صيحة فرجيليوس القانطة:

quid labor aut benefacta iuuant?(3.525)

" ما جدوى الكد والعناء وما الطائل من وراء العمل الصالح؟"

قد تبدي الارتياب في حقيقة أن العمل labor قد يؤتي بثماره، وأنه يمكن حقًا تحقيق سلام النفس في عالم حافل بالكوارث الطبيعية التي يحار الفكر في تفسيرها كالطاعون الذي حل من دون سابق إنذار، فأصاب البرئ سليم الطوية والمذنب سواء بسواء. Gale M. op. cit. p.46.

33. Verg. Georg. 3. 537-547.
34. West D. op. cit. p. 82-5.
٣٥. يصور البيتان (٥٤٢ – ٥٤٣) انجراف الأحياء المائية إلى الشاطئ وكأنها غرقى من البشر: إنه تناقض ظاهري آخر؛ فنزوح حيوان الفقمة إلى مياه الأنهار مثله في ذلك مثل تواجد الغزال بالقرب من العمران. وقد أوعز فرجيليوس بأنها لجأت إلى مياه الأنهار لتنجو من إصابة بيئتها الطبيعية (البحار) بالتلوث، متغاضيًا عن أن الأنهار ليست بأقل تلوثًا من البحار. وفي الأبيات (٥٣١ – ٥٣٣) يعد اللجوء إلى الثور البري لجر عربة الربة جونو دليلًا قاطعًا على ندرة الحيوانات المستأنسة، وقد يفوتنا أن نتساءل : كيف يتسنى أن يكون الثور البري uri معفي من الوباء بينما أصيب كل من حوله. أما أن ينبش الفلاح بأظافره ليبذر البذور (٥٣٤ – ٥٣٦) فمن المؤكد أن هذا عملًا ينافي المنطق والعقل؛ إذ لم يمتد الطاعون أيضًا إلى الآلات الزراعية.
West D. op. cit. p. 85f.

36. Farrell J. op. cit. p.87f.
37. West D. op. cit. p. 85f
38. Lucr. DRN 1. 84-101 ; Gale M. op. cit. p.46
39. Farrell J. op. cit. p.92f.
40. ibid, p.86.
41. Verg. Georg. 3. 548-550.
٤٢. يعقب ريتشارد توماس على البيت (٥٥٠) على الوجه التالي : " إن فرجيليوس لا يقصد هذه الرموز الأسطورية في حد ذاتها، بل إنهما ينوبان عن الأطباء في هذا العصر. وقد أشتهر خيرون منذ عصر هوميروس بفضل مهاراته العلاجية: ففي الكتاب الرابع من الإلياذة تولى ماخاؤون رعاية مينيلاؤوس عندما أُصيب أثناء القتال فداواه بعقار كان قد أوصاه والده خيرون به. وبقرب ختام الكتاب الحادي عشر من الإلياذة أيضًا التمس يوريبيلوس المساعدة الطبية من باتروكلوس، إذ إن باتروكلوس قد تلقى تعليمه على يد أخيلليس الذي تعلم بدوره على يد القنطور خيرون. وعند هذا الموضع من الإلياذة أشار هوميروس إلى خيرون بوصفه "خير وأصلح القناطير قاطبة" (Hom. Il. 832) . فلا غرو إذن أن يجعل فرجيليوس من خيرون مجازًا عن الطب.
ويقف ميلامبوس أيضًا كنموذج مناسب للتصدي لطاعون الماشية؛ وذلك لقدرته على فهم منطق الطير والحيوانات. هذا فضلًا عن علاجه لنساء أرجوس من الجنون الذي أصابتهن به الربة هيرا؛

حيث حملتهن على الاعتقاد أنهن أبقار (Verg. Eclog. 6.48) . وقد نعت هوميروس ميلامبوس بأنه "عراف لا تثريب عليه" (Hom. Od. 11.291) .

Thomas, R. (1988) Virgil: Georgics. Cambridge, apud Clare, R. (1995), " Chiron, Melampus and Tisiphone : Myth and Meaning in Virgil's Plague of Noricum ", Hermathena p.101

43. Clare, R. op. cit. p. 102.
44. Verg. Georg. 3. 92-94.
45. Clare, R. op. cit. p. 103f.
46. Lucr. DRN 1. 62-79.
47. Farrell J. op. cit. p.86
48. West D. op. cit. p. 88.

٤٩. لم يكتف فرجيليوس بأن يطرح في تقريره عن الطاعون تفسيرًا لما غمض واستعصى على الفهم، بل زاد على ذلك أن شرح أمورًا من المرجح أنها توجد فقط بقصيدة لوكريتيوس، وأعني بهذا قوة الموت الرهيبة التي تقهر حتى أشد النظم العقلانية إحكامًا وأكثرها رسوخًا. إن هذا هو التشخيص النابض بالحياة عند فرجيليوس؛ الذي لا يتوقف على خيرون وميلامبوس فقط، بل زاد عليها نهر ستيكس الذي يعد رمزًا للموت، وكذا تشخيص المجردات المعنوية كالأسقام والمخاوف، اللذين جسدهما في صور تيسيفوني، حيث يتحرك انتصارها في الاتجاه المضاد لانتصار أبيقور على المعتقدات الخرافية. Farrell J. op. cit. p.204

٥٠. حذر فرجيليوس الراعي الذي أصيب قطيع ماشيته من مغبة الاعتماد على الأرباب، بينما يقتضي الموقف إجراءًا عاجلًا :

alitur uitium uiuitque tegendo,
dum medicas adhibere manus ad uulnera pastor
abnegat et meliora deos sedet omina poscens.(3.454-6)

" ازداد الوباء وتفاقم في خفاء،
في حين أحجم الراعي عن اللجوء إلى التدخل الجراحي لعلاج القرح،
بل قبع متراخيًا بلا عمل، يستجدي من الآلهة بشير خير."

تبدي مفردات لوكريتيوس التي استعان بها فرجيليوس الكثير من الارتياب؛ قد لا يعود اللجوء إلى الأرباب بطائل على الإطلاق، قد تكون الأوبئة مجرد ظاهرة طبيعية بحتة، وعلى الإنسان أن يعالج هذه الظاهرة قدر الإمكان. إن التشكيك في دور الآلهة هنا يطرح التزامًا شديدًا بلوكريتيوس ويعول عليه فيما يتعلق بالتقرير عن الطاعون الذي أصاب ماشية مدينة نوريكوم. Gale M. op. cit. p.75f.

51. Farrell J. op. cit. p.93f.
52. ibid. p. 88f.
53. Lucr. DRN 2. 352-366.
54. Verg. Georg. 3. 515-530.
55. Farrell J. op. cit. p.91.
56. ibid. 91.

57. Thomas, R. (1986), " Virgil's Georgics and the Art of Reference," HSCP, p.176.

انظر أيضًا مقال :

Gale, M. (1991), " Man and Beast in Lucretius and the Georgics," CQ 41.

حيث تربط المؤلفة العاطفة الحسية وبين الطاعون، واستخدمت أسطورة المسخ ساتورنوس في هذا الربط. انظر بوجه خاص p.418 .

58. Farrell J. op. cit. p.84.

٥٩. علي عبد التواب، المرجع السابق، صـ ١٦١ – ١٦٢.

60. Gale M. op. cit. p.48.

61. ibid. p.51.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا المصادر :

Lucretius : On the Nature of Things. Trans.& Edit. By W. Rouse, LCL (1943).

Virgil : Eclogues, Georgics, Aeneid I – VI . Trans.& Edit. By H. Fairclough, LCL (1999).

ثانيًا المراجع باللغة العربية :

سيد أحمد صادق، " تأصيل التناص في التراجيديا الإغريقية". أوراق كلاسيكية، جامعة القاهرة، العدد السابع (٢٠٠٧) صـ ١٠٧ – ١٣٤.

علي عبد التواب، " طاعون أثينا : الحقيقة التاريخية والرؤية الفلسفية". مجلة كلية الآداب، مجلد ٦٧ (٢٠٠٧) جامعة القاهرة، صـ ١٥٥ – ٢٠٥ .

ثالثًا المراجع الأجنبية :

- Clare, R. (1995), " Chiron, Melampus and Tisiphone : Myth and Meaning in Virgil's Plague of Noricum ", Hermathena 158, 95-108.
- Farrell, J. (1991), Vergil's Georgics and the Tradition of Ancient Epic:The Art of Allusion in Literary History. New York.
- Finnegan, R.(1999), " Plagues in Classical Literature ", CAI 6, 23-42.
- Gale, M. (2000), Virgil on the Nature of Things.

Cambridge.
- ----. (1991), " Man and Beast in Lucretius and the Georgics," CQ 41 (ii), 414-426.
- Thomas, R. (1988) Virgil : Georgics. Cambridge.
- ---- (1986), " Virgil's Georgics and the Art of Reference," HSCP 90, 171-198.
- West, D. (1979) " Two Plagues : Virgil, Georgics 3. 478-566 and Lucretius 6.1090-11286". In Creative Imagination and Latin Literature, ed. D. West and A. J. Woodman. pp. 71-88.